حذار توظيف الدين في السياسة

ما اعنيه بذلك هو ان يكون الدين تبعاً للأهواء السياسية، تكون وظيفته التبرير لها، واعطاء المسوغات لمصالح الحاكم او السلطان ورغباته وقراراته، مهما كانت هذه الرغبات او المصالح.. دون النظر الى كونها موافقة للدين ام مخالفة له.

وهذا الأمر ليس جديداً في مجتمعاتنا، بل هو قديم بقدم الأديان والسلطان، حيث قد يسعى بعض حملة العلم الى تلمس ما لدى السلطان، فيبيع بالأصفرين دينه، ويهب السلطان تأييداً مطلقاً، وتبريراً مبرماً، حتى نشأ في الأدبيات الدينية مصطلحات من قبيل علماء البلاط وفقهاء السلطان، كتعبير عن ظاهرة كانت وما زالت موجودة بين ظهرانينا.

بل وصل الأمر الى حد ان تكون أكثر من مؤسسة دينية تبعاً لزعامة دنيوية او سياسية، مما أساء الى الدين والسياسة، وأضر بهما معاً، لأنه حرم السياسة من قدرة القيم والأخلاق الدينية على هدي مساراتها، وتهذيب وظائفها، وأفقد الدين دوره في ترشيد فعلها، وجعلِ ذلك الفعل اقرب الى قيم التعاون على الخير والإصلاح وخدمة الإنسان، حتى قيل في هذا المعنى: "اذا رأيتم العلماء على ابواب الأمراء فبئس العلماء وبئس الأمراء، واذا رأيتم الأمراء على ابواب العلماء فنعم العلماء ونعم الأمراء".

وفي مقابل ما تقدم يطرح رأي آخر، يقوم على انبناء السياسة على الدين، بمعنى صدورها من رحم القيم الدينية، والمفاهيم الأصيلة للدين، التي تدعو الى التعاون على البر والخير، والتفاني في خدمة الإنسان والصالح العام، والدعوة الى الإصلاح ومواجهة الفساد، والتي ترى قدرة المنظومة الدينية على مواكبة متغيرات العصر، والاستجابة للحاجات القائمة، وبناء أنموذج متقدم يقوم على الأخلاق والمعاصرة.

أين تكمن مخاطر ذلك التوظيف السلبي للدين، لتبرير شهوات الحاكم ورغبات السلطان؟ يمكن اجمال الجواب فيما يلي:

1- يمتلك الدين طاقة استثنائية، لكن هذه الطاقة اذا ما وظفت في الطريق الخطأ تصبح طاقة هدامة اكثر، وعليه فإن عالم الدين اذا ما اصبح في خدمة مصالح السلطان وتوجهاته، فهذا يعني نتائج كارثية ومزيداً من العنف والدمار، والفساد والإفساد، والقتل والإجرام، وهذه المرة باسم الدين والإسلام.

2- قد يتوهم البعض ان الفعل السياسي عندما يعطى طابعه الديني، فقد اصبح خارج دائرة العقل والنقد، وهو ما يعطّل دور العقلانية، ويغدو عندها من الصعب تلمس اي خطأ، وتصويب اي فعل، وبالتالي يقفل الباب أمام تصحيح المسارات السياسية او المواقف والتوجهات.

3- سوف يؤدي الى تلويث الدين بأهواء السياسيين ونزواتهم ورغباتهم، مما يؤدي الى تقديم نموذج ديني قبيح ومشوّه ومنفّر، يبعد الناس عن الهداية الإلهية، بدل ان يكون دوره تقريبهم منها وسوقهم اليها.

4- يؤدي الى قلب المفاهيم، وتبديل الوظائف، وتحريف الغايات، فبدل ان يكون العمل مثلاً، على تطهير الأنفس من العصبيات، وإطفاء نار الفتن، تصبح الوظيفة تثوير العصبيات، وتأجيج الفتن، وممارسة التحريض المذهبي، والدعوة الى الإجرام والتكفير باسم الدين.

5- يسهم في إنتاج تراث فتنوي تفريقي إقصائي تكفيري، ليقدم على أساس انه الدين بعينه، بعد أن يستلب الدين من حقيقته، ويتجلبب لباسَه تراثٌ يجافي حقيقة الدين ومفاهيمه السمحة.

<u>إجمال وتلخيص:</u> ان بعض من له حظ من الفقه، قد لا يعي خطر ما يقدم عليه، وما يتفوه به، من فتاوى تخدم السلطان وتغضب الرحمن، يشتري بها ثمناً قليلاً، ويقطفها حساباً ثقيلاً، تضج الدماء من فتاواه، وتشكو الحرمات من احكامه، قد غرق في العصبية، وأعادها دعوة جاهلية.

قد يكون معلوماً ان السياسي لا يتورع في صراعاته عن استخدام كافة ما يتاح له من أدوات لغلبة الخصم، بما في ذلك سلاح الدين والمذهبية، لكم ما ليس مفهوماً ان يقبل بعض علماء الدين، من له حظ في العلم، أن يكون بوق فتنة، وداعية عصبية، وأن ينقلب على دوره الديني، فيدعو الى الإفساد بدل الإصلاح، والى القتل بدل حفظ الأنفس والأرواح، والى التفرقة بدل الجمع، والى التنازع بدل التآلف، والى التنافر بدل التقارب، والى الفتنة بين المسلمين بدل إصلاح ذات البين.

ان بعض من أكل على مائدة السلطان، وضرب معه بقلمه، وباعه جهد لسانه، لا ادري ان كان يعلم او لا يعلم، ان خطايا قلمه وصولة لسانه لم تكن حبيسة زمن سلطانه، بل هو بفعلته قد أورث وارثيه تراثاً في التكفير والعصبية، وانه احيا بدعوته دعوة الجاهلية، وانه عندما وظف الدين في برهة من الزمن خدمة لرغبات السلطان، فان ما فعله هو انه أنتج تراثاً تكفيرياً، وفهماً إلغائياً، سوف يبقى يُجتر قتلاً وتدميراً على مدى الدهور وكر العصور، ما لم يُعمد الى تفكيكه، وإلغاء مفاعيله، وإبطال نسبته الى الدين والإسلام.

لقد أصبح ذلك التراث عائقاً أمام اي مشروع للوحدة الإسلامية او الوطنية، واضحى سبباً لعدم الاستقرار وتوليد الأزمات، في جميع المجتمعات المتنوعة مذهبياً وطائفياً، وسبباً لإبقائها مجتمعات مأزومة وغير مستقرة، لما ينطوي عليه من محركات معرفية، تعمل على تسميم العلاقات الإسلامية والوطنية، وإنتاج الفتن، ولما يختزنه من لاعقلانية مفرطة، تقفل الباب على أية حلول أو تسويات، ولما يملكه من دفع دائم الى مزيد من العنف والقتل وإسالة الدماء.

ان اخطر ما في ذلك التراث المستولد سياسياً وبفعل عوامل أخرى، هو نسبته الى الإسلام، وارتكابه الجرائم وتدمير المجتمعات باسم الدين، لذلك لن يستقيم حال الأمة، ولن تصلح علاقاتها، ما لم ينزع عن ذلك التراث شرعيته الإسلامية، وما لم يبادر جميع علماء المسلمين الى نقده وابطاله، وتعطيل مفاعيله، ومحاصرة من يتبنون خطابه وفعله، والحؤول دون جميع تلك التداعيات الخطيرة التي تصيب المسلمين وغيرهم، في أرواحهم وأرزاقهم وأمنهم ومستقبل أوطانهم.

محمد شقير

أستاذ في الجامعة الإسلامية في لبنان